

باب التربية والتعليم

{ أميل القرن التاسع عشر }

(٢) من ارسلهم الى هيلانة في ١١ أغسطس سنة ١٨٥٠

اعلم ان تربية الطفل في الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح ان
أقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايتها بما عساه يؤذيه
من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها في
عملها واعايتها عليه عند الحاجة

ان المولود يدخل عند ولادته فيما اصطلح علماء وظائف الاعضاء على
تسميته بالحياة المستقلة ولكن ما أضعف استقلاله وأقل حرية فانه بما أودع
فيه من غريزة التغذي لا يكاد يرى الامتقما لثدي أمه فتكون معه كالفصن
المطعم بأخر فهو اذن تابع لغيره فقير اليه في غذائه وسد حاجات معيشته
المادية وما أخفى معنى الانسانية فيه وألبسه وهو في هذا الطور من الحياة
فانه لما كان مغموراً في سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول أمره على ما يرى
من حاله أدنى ادراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء . مسكين ذلك
المولود الاعمى فانه لا يجد ثدي أمه الا بتلمسه نعم ان له عينين لكنه لا يبصر
بهما وأذنين غير انه لا يسمع بهما ويدين الا انه لما يتيسر له ان يبطش بهما .
هذا المولود الذي هو وثن لامه تمبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه
بالآلهة ^(١) الزمنى الذين سخرت منهم التوراة لكنه على ما فيه من الضعف

« ١ » لعل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما اراد ان
يتعبدى امته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم ان يقربوا ثورا لآلهتهم ويقرب هو آخر

والهجر قد خلقت له وظيفة مهمة يؤديها في العالم ألا وهي النمو

فوظيفة الام تكاد تنتهي الى عدم اعاقه هذا العمل الفطري الخفي والتحرز من تشويشه واني طالما أعجبت بما تهديه اليها في ذلك اثني الطير من الاسوق الحسنة فانها لشد ما تعتي بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار وتبالغ في اخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الأشجار والمرأة أقل منهادراية بما يجب الاولاد لاننا كثيرا ما نراها تتخذ مولودها العموية لشفتها وحنانها. وما ذا نقول في أمهات ما ينه ككن يرين الاجانب اولادهن فيدرهم من يد الى يد ويهجن انفعالهم بما يتصغنه لهم من الحركات والاشارات ويعذبهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم. أقول قولاً لا أود منك اذا عته وهو اني أخشى انهن في ذلك ينظرن الى تسليهن أو الى زهوهن أكثر من نظرهن الى مصاحبة الطفل

والحذر الحذر ايضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هذا العصر وكتابه قد بانوا في اطراء الطفل فلمهم قد حجب اليهم الخيال ان يروا فيه ملكاً نزل من الجنة تاركاً فيها جناحيه . اني في الحقيقة لا أعرف من اين اتى ولكن رأيي فيه هو انه اذا كان تدرأى عجائب في عالم آخر فقد ايدكر منها شيئاً وانه انما يحصل علومه جميعها بيننا. وسأبين لك في الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم . اه

(٣) من اراسم الى هيلانه في ١٢ أغسطس سنة - ١٨٥

ان أول زمن في حياتنا نكبون فيه أكثر تعلماً وأشد تحصيلاً هو ذلك

لا له ليظهر اى الآلهة يقبل قربان عباده فقر بوا نورهم ودعوا بعلا الهمم من الصباح الى الظهر لينزل ناراً تكله فلم يحبهم ففسخ منهم نبى الله وقال تابروا على الدعاء فاعلمه نأثم

الزمن الذي لا يماننا التمامون علينا فيه شيئاً تعالماً نظامياً لجميع الامهات يعرفن ان الطفل يترقى في تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى ان يبلغ ستة اشهر ترقياً غير معهود في هذا السن وقد حسب له بعض علماء وظائف الاعضاء ما يكتسبه من العلوم وهو في سن شهرين الى ان يبلغ سنتين او ثلاثاً من عمره فوجد انه يكتسب منها ثلث ما يكتسب في تحصيله اوساط الناس فاني له هذه التربية الاولى ؟ نعم انه لا يتكرر ان لامه دخلا فيها ولكن اخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره اياها فهذا ينبوع الاصولي من ينابيع العلم الانساني واعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس هو الذي اريد توجيه فكرك اليه

ولننظر ابتداء الى ما يجري في الواقع . فالملود في مدة الاسابيع الاولى من ولادته يكون مخم لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه الممتدة اميشة الاختلاط بما حوله في نهاية المعجز عن اجابة داعي ما يحثف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل فانه يرى جميع هذه الاشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئاً ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خوده كمثل صنم ممنون^(١) يكون ساكناً فاذا انصبت عليه اشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه . هذا هو شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله

(١) ممنون في اساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تبتون ملك الحبشة وهو ايضا اسم لثمال معبود مصري كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت نشي من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس

انتعاش ذلك الصمم بالشمس ان سمي هذا انتعاشا

هل يتعلم المولود الابصار والسمع أم يأتيانه عفواً؟ تلك مسألة صعب
كثيراً على المشتغلين بعلم وظائف الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فلهم
فيها أقوال مختلفة ولكن الذي أجمعوا عليه ان المولود يتعلم بالتمرين اجادة
هذين الفعلين فليكننا ذلك من جواب هذه المسئلة والحكمة في هذا انه
من السنن الالهية ان كل عضو يحسن عمل ما واظب عليه وفوق ذلك فان
قوة الاعمال عند الطفل تزداد يوماً فيوماً بما يجده من اللذة في استخدام
ما أوتيته من وسائل العلم الصغرى فقد قال بسويه^(١) ان لذة الاحساس
قوية جداً

الاحساس في الغالب يحصل في المولودين عفواً من غير معاناة تعليم
فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللبس والذوق والابصار والسمع بل انهم يجدون
فيها وهبهم الله من الغرائز ما يلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي
من مقتضيات الحياة ولكن أليس من اليسور ان تعاون الفطرة على ادائها
بل أقول أليس في قوة اقتداء الطفل بغيره ومناقسته اياه وفي تخيله الاشياء
المحيطة به تزداد رونقا يستلقت نظره اليها ما يساعده على تنبيه مشاعره ودفعا
الى اجراء ما خلقت لاجله؟ اننا نرى في البهائم ان اتاها لا تكف عن ارشاد
صغارها الى استخدام حاستي السمع والبصر وجمها على الانتفاع بهما وهذا
الارشاد هو السبب على ما أرى فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض

(١) بسويه هو جاك بيننبي بسويه المولود في ديجون سنة ١٦٢٧ والمتوفى سنة

١٧٠٤ كان أسقفا لكندوم ثم موثق صار مربيًا لولي عهد لويز الرابع عشر وهو من

أكبر كتاب فرنسا وأعظم واعظ نبغ فيها

الفصائل الحيوانية

كذلك المتوحش كما تعلمين يكاد يكون نصيبه من التربية قاصراً على المشاعر ولشد ما برز علينا بهذا السبب في بعض القوى: فالعادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تسمى في الاجيال البدوية جملة أنواع من الادراك خارقة للعادة في دقتها وسعتها. واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه اكتفينا في الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغير عند اتقانها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس فمن ذا الذي كان يظن ان الارانب اذا تربت في خاوية نسيبت بعد ثلاث بطون طريقة احتفار الاجحار للسكنى بها وهذا الخروف نفسه الذي نعتبره مثالا للذل وسلاسة التمياد والعباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهى بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصه^(١) ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين فجعله الانسان خروفاً أهلياً بزربه أي ببناء زريبة له وتوظيف راع للقيام عليه وكلاب حراسته

كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالتمدن وتخصر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشية فأى حاجة تبقى له في أن يكون دائم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءه فراقبة الحيوان المؤذي من بعيد والصاق الاذن بالأرض لمعرفة خطأ العدو من بعد أنهي

(١) قورصه جزيرة بالبحر الابيض المتوسط وهي احدى مقاطعات فرنسا على

بعد ٢٧٠ كيلو متر من شواطئها

أو ثلاثة آلاف ميل لا ضرورة لها الا في حق سكان أمريكا وأستراليا
الاصليين أما نحن فقي خالتنا العنصرية ما يعنيننا عن ذلك فان لنا الشرطي
والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا ما نخشاه من أذى المعتدين وكيد
الخائنين فاذا زال الخطر الملازم للمعيشة البدوية بالتحضر وجب ختما ان يزول
معه ما كان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة التي هي عون وجدان
المحافظة على النفس

كأني بك تقولين ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئاً مذكوراً في
جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء التمدن ان صح ان ينسب
له الخلق وأنا بلا شك موافق لك في هذا فاننا والحق يقال قد ربحنا من
الحضارة أكثر مما خسرنا ولكن هيهات ان يقنعني هذا الفكر لاني أرى
انه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر ان يستجمع في شخصه جميع
المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله ، وكوني على يقين من اننا
لو بلغنا هذه الغاية ما عد ذلك منا إفراطاً في الغنى ولا وصلنا في الحياة
مطابقاً الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل ما من شأنه ان يحيي وان قوى
الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى
الفكرية

أما كون التمدن يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم
الاجتماعية ويغالب على الدوام العوامل الفطرية مغالبة يتل بها جداً عدد
البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته فهذا كله في غاية الحسن وأما
كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهذا أمر لا أجدمساغا للطمن فيه
وانما كل الذي آسف عليه من ذلك هو ان طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة

كسل وخبود لمشاعرنا وقد ادركت ذلك الأمم المتقدمة انفسها تمام الإدراك فانها قد اقبلت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها ادنى موجب ان لم تكن قد اعتبرت بها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلا. ولو ان رجالا تلاكوا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحكمة مع انهم لم يفعلوا الا ما يفعله الملاكمون من شباننا في ملاعبهم الرياضية (مجال الجناز). اني ارى ما لم اكن محطئا ان الترقى في مجموع الآلات التي نستعملها لسد حاجاتنا لا بد أنه يستتبع زيادة التكلف في استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا والا لاصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيها بباشا غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة^(١) فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهماك الناشئين في كل انواع الالعاب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم ولولا هذه الالعب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سببنا في انحطاط الدولاب^(٢) الانساني من عرش سيادته

العلم أيضا يفرغ جبهده وينفذ مهارته وحنقه في تكميل نقص اعضائنا بما يوجد له من طرق المساعدة في اداء وظائفها وانى الكثير الاعجاب بجميع الناس باكتشاف المنظار المقرب أو المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد ولكن التوحش الامريكى ذا الجلد الاحمر لا يحتاج في اكتشاف نقطة فوق الافق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من الاعتياد على ارسال

(١) ليتأمل القاري، اعتقاد علماء الافرنج في أعظم رجال الشرق (الباشاوات)

و ليحكم فيه بانصاف (٢) المراد بالدولاب الانساني جسم الانسان بما فيه من الاعضاء والقوى فانه شبيه به

أشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي إليه بصور ما فيها من الأشياء . أليس في اعانة المشاعر بالآلات على القيام بوظائفها رفع جزء من ثمة الانسان بفطرته التي قضت بأن يفوق الوحشي المتمدن ولو من بعض الوجوه واني لا أريد بهذا (كالا يخمني عليك) وجوب الاستغناء مطلقاً عن مكتشفات العلم والصناعة وانما أريد به أن لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة الى انشاء الطفل المتمدن مترفاً جباناً قصير النظر وانه سيؤول أمره الى ذلك اذا اتت الاعتماد في كل شؤونه على ترقى وسائلنا الصناعية ولم يجعل لنفسه وقوة أعضائه نصيباً من ارتكائه عليهما

ألا توجد طريقة لاسترجاع جزء من الخواص الاصلية التي أضاعها منا الانغماس في التمدن ؟ قد يوجد لذلك سبيل فكثيراً ما فكرت في الوظيفة العمرانية للاصناف الانسانية التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة لسد خلل فينا وهو التضاء الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكا الجنوبية هو الذي يهد إليه خاصة تربية مولودي الصنف الابيض فنساؤه مرضع بارعات لهؤلاء المولودين والرجال يمر نونهم على حسن النظر والسمع ولذلك كانت تربية الاحداث الامريكين أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الأطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا على ان التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيئاً للطفل وانما تنمي ما هو موجود فيه فكم من القوى الجسدية التي لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة بمجرد اغفال استعمالها

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متأقنين لا تخلو من منبهات المشاعر ولكن هل تلائم أنديةنا وزخرفنا حالة الطفل الملائمة المطلوبة؟ كلا فإنه يولد محباً للاستطلاع مقلداً لما يراه ففي ايجاده في مثل هذه الانانية جذب له الى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه وقلبا يكتسب من يترى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد فأنا أفضل كثيراً أن يترى أميل في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعنا شيئاً من صورته

جميع المشتغلين بوظائف الاعضاء معترفون بما اتريه المشاعر من الاهمية بل ان بعضهم قد أوصى بأخذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ولكني لا أخفي عنك ان مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تنقي بها كثيراً فان كل ما يفكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه فالواجب على ما أرى أن يعتمد في تنبيه طرق الاحساس لهذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية . والام هي التي من وظائفها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الاصوات والاشكال والالوان والروائح والطعوم وتنويع هذه الانفعالات وتدريبها فعليها أن تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال والعالم الخارجي لا يقتضي سوى الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيهه عند مسيس الحاجة الى ما يستحق التنبيه القوي الجسدية والقوى النفسية وان كانت متميزة منفصلاً بعضها عن بعض الا ان بينها رابطة تربطها فان صحة أنواع التصورات ليست بعزل عن صحة التصديقات وان الذهن بما يمثله فيه من صور المدرجات يهيء مواد

الفكر فيجب أن تكون تربية المشاعر ابتداء مقصودا بها تربية العقل اه

—•••••—

﴿ مدرسة زعزوع بك للبنين ﴾

أنشأ سيد أحمد بك زعزوع مدرسة في بني سويف ففرح المسلمون بذلك واستبشروا بهذا العمل الشريف والخدمة الاسلامية الجليلة ولما تبين انه جعل لا كبار رجال الحكومة في بلده احق النظر في ادارتها ظن بعض الناس ان هذا يحول دون التربية الاسلامية التي يجب أن تقرن بالتعليم لاجل بث روح التهذيب الملي في النشء الجديد وأنشأ بعض المتبحرين بالوطنية أو انتقاد الحكومة ومعارفها مدرسة وبشر الناس بأن سيكون امتيازها على سائر المدارس بالتوسع بتعليم الدين والتربية الوطنية فتوهم الذين يعتقدون الكمال بكل من ينتقد الحكومة ان هذه المدرسة هي ضالة الامة المنشودة فاخطأ الظن وضل الوهم في المدرستين وتبين بالاختبار ان مدرسة زعزوع بك منبع الحياة الملية فانتلامذة يتلقون القرآن الكريم مع تفسيره اجمالا فما بالك بسائر العلوم الدينية ويصلون في المدرسة اجمعين وليس في المدرسة الوطنية التي اشرنا اليها شيء من هذا . مدرسة زعزوع بك اختبرتها بنفسي مرتين والمدرسة الوطنية الاخرى علمت ممن يوثق به من أهلها ان التلامذة لا يلزمون فيها بالصلاة ولها دون مدارس الحكومة في تعليم الدين . وانما قلنا هذا لان الشناء بالصدق والانتقاد بالحق من أعظم أسباب الترقى والكمال

لاخلاف بين العقلاء في ان العناية بالتربية أهم من العناية بالتعليم لان الذي يتعلم ولا يتربي ربما يفسر بعلمه أكثر مما ينفع وينتفع وقد رأيت من العناية بالتربية في مدرسة زعزوع بك ما ملاء قلبي سرورا ورجاء بحسن